والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ **قُلْتُ:** الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان ﴿من نشاء من عبادنا﴾ من له لطف ومن لا لطف له فلا هداية تجدي عليه.

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾.

﴿صراط الله﴾ بدل، وقرئ لتهدي أي: يهديك الله وقرئ لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.

وجعل قوله: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًا﴾ جوابًا للقسم[3] وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد ونظيره قول أبي تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين أنزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم وقيل: الواضح للمتدبرين وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى: صيرناه معدّى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدّى إلى واحد كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ و﴿قرآنًا عربيًا﴾ حال، ولعلّ مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي أي: خلقناه عربيًا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

وقرئ أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾[4] سمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزًا من بينها ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتاب هما صفتاه وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحًا﴾ بمعنى أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكارًا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب وخلقه قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجبه، وصفحًا على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم وإمّا بمعنى: الجانب من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى أفننحيه عنكم جانبًا فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبًا وامش جانبًا وتعضده قراءة من قرأ صفحًا بالضم وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين ﴿إن كنتم﴾ أي لأن كنتم وقرئ أن كنتم وإذ كنتم.

فإن قُلْتَ: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ **قُلْتُ:** هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاله.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية خال ماضيه مستمرّة أي: كانوا على نلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أشدّ منهم﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿ومضى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 3/246.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بانه قرآن عربي مرجوّ به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى، فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، = وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بأنه في غاية الحسن ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي أغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيتان: 21 ـ 22.

مثل الأولين﴾ أي: سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول الله ﷺ ووعيد لهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم(1) فما تصنع بقوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتًا كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله فما وجهه؟ قُلْتُ: هو من قول الله لا من قولهم ومعنى قوله: ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم الذي هو من صفته كيت وكيت لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾.

﴿بقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ولم يكن طوفانًا.

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾.

﴿الأزواج﴾ الأصناف ﴿ما تركبون﴾ أي تركبونه.

فإن قُلْتَ: يقال ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك(2)، وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قُلْتُ: غلب المتعدّي بغير واسطة لقوّته على المتعدّي بواسطة، فقيل: تركبونه.

لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾.

﴿على ظهوره﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام، ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ثم يحمدوا عليها بألسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ إنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا إلى قوله، لمنقلبون وكبر ثلاثًا وهلل ثلاثًا(3) وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم(4)، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا فقال: أبهذا أمرتم فقال: وبم أمرنا: قال أن تذكروا نعمة ربكم كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه(5)، وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها

---

(1) قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم، وبعضهم من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم: خلقهنّ وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهنّ الله، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾، ثم لما قالوا: خلقهنّ الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه، وأخذه حذف الموصوف من كلامهم، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه، كأنه كلام واحد، ونظير هذا أن نقول للرجل: من أكرمك من القوم، فيقول: أكرمني زيد، فتقول أنت واصفاً للمذكور الكريم الجوّاد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة، فجاء أوّله على لفظ الغيبة، وآخره على الانتقال منها إلى التكلم في قوله: فأنشرنا كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فجاء أوّل الكلام حكاية عن موسى إلى قوله: ﴿ولا ينسى﴾ ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافاً متصلة بكلام موسى، حتى كأنه كلام واحد وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: ﴿فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾، فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب، والله الموفق.

(2) قال أحمد: لم يحرّر العبارة في هذا الموضع، فإنّ قوله: غلب المتعدّي بغير واسطة على المتعدّى بنفسه يوهم أنّ بينَ الفعلين تبايناً وليس كذلك، فإنّ المتعدّى إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدّى إلى السفن غاية ما، ثم أنّ العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة، وباعتبار بعضها بالتعدّي بنفسه، والاختلاف= بالتعدّي والقصور أوباختلاف آلات التعدّي، وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعدّون الفعل الواحد مرّة بنفسه ومرّة بواسطة؛ مثل: سكرت وأخواته، ويعدّون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة مثل: دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى لأفهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعدّون بعضها إلى مفعولين ومرادفه إلى مفعول واحد كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدّي والقصور الاختلاف في المعنى، فالذي يحرّر من هذا إن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة الآخر بسقوطها، فالصواب أحد الأمرين، أمّا تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب تعليله باعتبار التعدّي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ على أحد التأويلين فيه، فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى أعني أجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقاربا غلب إحداهما على الآخر، ثم جعل المغلب هو المتعدّي بنفسه، والله أعلم.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الصلاة، باب: المسافر، (الحديث: 2696)، أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا سافر، (الحديث: 2599)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج، وغيره.

(4) قال الزيلعي غريب، لكن رواه الطبراني في معجمه من قوله ﷺ لا من فعله إذ لا يعرف أن النبي ﷺ ركب السفينة، الزيلعي: 3/ 250.

(5) رواه الطبراني في كتاب: الدعاء، ورواه الطبري، الزيلعي: 3/ 251.

جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ﴿مقرنين﴾ مطيقين يقال أقرن الشيء إذا أطاقه قال ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما ... يطاق احتمال الصد يا دعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم في الضعيف لا يقرن به الصعبة وقرئ مقرنين والمعنى واحد.

وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل بذلك قوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ قُلْتُ: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب، وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منقلب من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًا للقاء الله بإصلاحه من نفسه والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستغيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا تتنزه على الخيل، أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم، وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرون إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره، وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر فلم يصح إلا بعد ما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره الله به في هذه الآية وقيل: ينكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾.

﴿وجعلوا له من عباده جزءًا﴾ متصل بقوله: ولئن سألتهم أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزأ فوصفوه بصفات المخلوقين ومعنى: من عباده جزأ إن قالوا الملائكة بنات الله فجعلوهم جزأ له وبعضنا منه كما يكون الولد بضعة من والده وجزأ له، ومن بدع التفاسير تفسير الجزء بالأناث وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب اسم للإناث وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث متحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتًا وبيتًا.

إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب ... زوجتها من بنات الأوس مجزئة

وقرئ جزؤا بضمتين ﴿لكفور مبين﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده لأنّ نسبة الولد إليه كفر والكفر أصل لكفران كله.

أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾.

﴿أم اتخذ﴾ بل اتخذوا الهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيبًا من شأنهم حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزأ حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين، وهو الإناث دون الذكور على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ولقد بلغ بهم المقت إلى أنّ وأدوهنّ[1] كانه قيل: هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضًا، وتمثيلاً أما

---

(1) قال أحمد: نحن معاشر أهل السنة نقول: أنّ كل شيء بمشيئة الله تعالى حتى الضلالة والهدى اتباعاً لدليل العقل وتصديقاً لنص النقل في أمثال قوله تعالى: ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيداً، ولا تفيده إلا تصويباً وتسديداً فنقول، إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً أما كونها كلمة حق فلما مهدناه وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله توهماً أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضلّ أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فاشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأنّ هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جلّ وعلا، فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه لأنهم توهموا أنها حجة على الله فدحض الله حجتهم وأكذب أمنيتهم، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون، وإن هم إلا يظنون، وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا = تخرصون﴾ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب الرسل، والإشراك بالله اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم لو شاء الله ما أشركنا، فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: ﴿إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾، ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: ﴿فللّه الحجة البالغة﴾، ثم أوضح في الردّ عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك لا لأنّ المقالة في نفسها كذب، فقال: ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، وهو معنى قولهم: لو شاء ما أشركنا من حيث أن لو مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم بل شاء ضلالتهم، ولو شاء هدايتهم لما ضلوا فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم والنور اللائح والمنهج الواضح، والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أنّ الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم هو أنه تعالى جعل للعبد تأتياً وتيسراً للهداية، وغيرها من الأفعال الكسبية حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينهما وبين العوارض القسْرية، فهذه الآية أقامت الحجة ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة، ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الخثيفة، فلا جرم أنّ أفهامهم تبددت، وأفكارهم تبلدت فغلت طائفة القدرية، واعتقدت أنّ العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة

تستحيون من الشطط في القسمة ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما. وتنكير بنات وتعريف البنين وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى: ﴿يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور﴾.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾.

﴿بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً أي: شبهًا لأنه إذا جعل الملائكة جزأ لله وبعضًا منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له قد ولدت لك بنت اغتنم واربدّ وجهه غيظًا وتأسفًا وهو مملوء من الكرب وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا تلد البنينا ... ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

والظلول بمعنى الصيرورة كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها، وقرئ: مسود ومسواد على أن في ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة واقعة موقع الخبر ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته.

أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾.

وهو أنه: ﴿ينشأ في الحلية﴾ أي يتربى في الزينة والنعمة وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه، وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال يقال: فلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها، وفيه أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك وينأف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى[1]، وقرئ: ينشأ وينشا ويناشأ ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء المغالاة بمعنى الإغلاء، قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله فاستخفوا بهم واحتقروهم.

وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾.

وقرئ: ﴿عباد الرحمن﴾ وعبيد الرحمن وعبد الرحمن وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم وأناثًا وأنثًا جمع الجمع، ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: أنهم أناث، وقرئ: اشهدوا وأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وأشهدوا بألف بينهما وهذا تهكم بهم بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم فأخبروا عن هذه المشاهدة ﴿ستكتب شهادتهم﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿ويسئلون﴾ وهذا وعيد، وقرئ: سيكتب وسنكتب بالياء والنون وشهادتهم وشهاداتهم ويساءلون على يفاعلون.

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ هما كفرتان أيضًا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث وهما عبادتهم الملائكة من دون الله وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله كما يقول إخوانهم المجبرة.

فإن قُلْتَ: ما أنكرت على من يقول قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين! **قُلْتُ:** لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل على أن الله تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له من عباده جزأ وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثًا وأنهم عبدوهم، وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدّوا في النطق به مدحًا لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء، فبقي أن يكونوا جادّين وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتسوية مذهبهم الباطل ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله تعالى: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ معنى لأنّ من قال: لا إله إلاّ الله على طريق الهزء كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه

= ربه وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى، فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أنّ جميع الكائنات بقدرة = الله تعالى ومشيئته، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة لما وجدوه من التفرّقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير وتمييز بين الضروري والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: اللباس وآدابه، (الحديث رقم: 5454).

ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئًا.

فإن قُلْتَ: ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم: إنّ الملائكة بنات الله من علم إن هم إلا يخوضون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله! **قُلْتُ:** تَمَحُّلُ مُبْطِل وتحريف مكابر ونحوه قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم﴾[1].

أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾.

الضمير في ﴿من قبله﴾ للقرآن أو الرسول، والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتابًا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم.

بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿إنا وجدنا آباءنا على أمّة﴾ على دين، وقرئ: على ﴿إمة﴾ بالكسر، وكلتاهما من الأم وهو القصد فالأمّة الطريقة التي تؤم أي: تقصد كالرحلة للمرحول إليه والأمة الحالة التي يكون عليها الآم، وهو القاصد وقيل: على نعمة وحالة حسنة ﴿على آثارهم مهتدون﴾ خبر إن أو الظرف صلة لمهتدون.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾.

﴿مترفوها﴾ الذين أترفتهم النعمة أي: أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾.

قرئ: ﴿قل﴾ وقال وجئتكم وجئناكم يعني: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آباءكم قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾.

قرئ: ﴿براء﴾ بفتح الباء وضمها، وبرئ: فبرئ وبراء نحو كريم كرام، وبراء مصدر كظماء ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة والمذكر والمؤنث يقال: نحن البراء منك والخلاء منك.

إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾.

﴿الذي فطرني﴾ فيه غير وجه أن يكون منصوبًا على أنه استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين وأن يكون مجرورًا بدلاً من المجرور بمن كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني.

فإن قُلْتَ: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين أحدهما أنّ ذات الله مخالفة لجميع الذوات فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون والثاني أنّ الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبوده؟ **قُلْتُ:** قالوا كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون إلا صفة بمعنى: غير، على أنّ ما في ما تعبدون موصوفة تقديره إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿سيهدين﴾ على التسويف **قُلْتُ:** قال مرّة فهو يهدين ومرّة فإنه سيهدين فاجمع بينهما وقدّر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال.

وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿وجعلها﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ ﴿كلمة باقية في عقبه﴾ في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعوا إلى توحيده لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ونحوه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾، وقيل: وجعلها الله وقرئ: كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك وفي عاقبه أي فيمن عقبه أي خلفه.

بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾.

﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿ورسول مبين﴾ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم وقرئ: بل متعنا.

فإن قُلْتَ: فما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء **قُلْتُ:** كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾[2] فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم لأنه

(1) سورة الأنعام، الآية: 148.

(2) سورة الزخرف، الآية: 28.

إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان لا أن يشركوا به، ويجعلوا له أندادًا فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾.

فإن قُلْتَ[1]: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه قوله:

﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه **قُلْتُ**: المراد بالتمتيع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال عزّ وعلا: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ومكابرة الرسول ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله، وشرائعه والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾.

بقولهم: **﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾** وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم قرئ على رجل بسكون الجيم من القريتين من إحدى القريتين كقوله تعالى: **﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾**[2] أي: من أحدهما والقريتان مكة والطائف وقيل: من رجلي القريتين وهما الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وعن قتادة الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول: لو كان حقًا ما يقول: محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي وأبو مسعود كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرًا رسولاً فلما، علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاؤا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين وقولهم: هذا القرآن نكر له على وجه الاستهانة به وأرادوا بعظم الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيمًا.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿أهم يقسمون رحمت ربك﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم، وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فاعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأنّ الله عزّ وعلا: هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسوّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش وغاير بين منازلهم، فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدمًا ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم، ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام، ثم قال: **﴿ورحمت ربك﴾** يريد وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا.

فإن قُلْتَ: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع[3] ومنهم من يعيش بالحلال ومنهم من يعيش بالحرام، فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال!**قُلْتُ**: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته هي مطاعمه ومشاربه وما يصلحهم من المنافع، وأذن له في تناولها ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً وسماها رزق الله وإذا لم يسلكها تناولها حرامًا وليس له أن يسميها رزق الله، فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة

---

(1) قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أنّ قوله خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا، وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكان تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها، كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: **﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾**، وهذه الإضرابات ليست على معنى أنّ الثاني منها ردّ للأوّل، بل ثانيها أكد من= أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار، بأنّ الثاني لما زاد على الأوّل صار باعتبار زيادته ونقصان الأوّل، كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أوّلهما، ويثبت آخرهما، ومثله كثير وبالله التوفيق.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 22.

(3) قال أحمد: قد تقدّم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوّم الله به حال العبد حلالاً كان أو حراماً، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله وقد تقدّم.

الحرمة بسوء تناولهم وهو عدو لهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾.

﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من قوله لمن يكفر، ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك وهبت له ثوباً لقميصه، وقرئ: سقفاً بفتح السين وسكون القاف وبضمها وسكون القاف ويضمها جمع سقف كرهن ورهن، وعن الفراء جمع سقيفة وسقفاً بفتحتين كأنه لغة في سقف وسقوفاً، ومعارج ومعاريج والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهي المصاعد إلى العلالي ﴿عليها يظهرون﴾ أي: على المعارج يظهرون السطوح يعلونها فما استطاعوا أن يظهروه.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾.

وسررًا بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف.

وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾.

﴿لما متاع الحياة﴾ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية وقرئ: بكسر اللام أي: الذي هو متاع الحياة كقوله تعالى: ﴿مثلاً ما بعوضة﴾[1] ولما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرئ: إلا وقرئ: وما كل ذلك إلا، لما قال: ﴿خير مما يجمعون﴾ فقلل أمر الدنيا وصغرها أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر، ويطبقوا عليه لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا عندنا للكفار سقفًا ومصاعدًا وأبوابًا وسررًا كلها من فضة وجعلنا لهم زخرفًا أي زينة من كل شيء[2].

والزخرف الزينة والذهب ويجوز أن يكون الأصل سقفًا من فضة وزخرف يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفًا على محل من فضة وفي معناه قول رسول الله ﷺ: لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء[3].

فإن قُلْتَ:فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام[4]! **قُلْتُ**:التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء وغلب الفقر على الغنى.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾.

وقرئ: ﴿ومن يعش﴾ بضم الشين وفتحها والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به[5] قيل: عشا ونظيره عرج

---

(1) سورة البقرة، الآية: 26.

(2) قال أحمد:لولا هنا أخت لولا في قوله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدّمت أيديهم﴾ الآية، فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفاً، كما قدّمته فيكون وجه الكلام ههنا: أنّ إجماعهم الكفر مانع من بسط الدنيا، وهذا هو معنى لولا المطرد أنّ ما بعدها أبداً مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾، وهو الأكثر، وقد يكون وجوده تقديراً معه، وعلى ذلك الآية أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً لوجد مانعه عندنا، وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد، ثم قال: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان، وأجاب: بأنّ التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما يؤدي إليه من الدخول في الإسلام، لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين. اهـ كلامه.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (الحديث رقم: 2320)، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10465) أخرجه أبو نعيم في الحلية: 3/ 304 و253.

(4) قال أحمد:سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى أنّ الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله: = ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون﴾، وأما الثانية: فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه، بقوله: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾.

(5) قال أحمد:في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول، بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: أن الشرط يعم والنكرة في سياقه تعم، وقد ردّ عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه رداً عنيفاً. وفي هذه الآية للإمام، ومن قال بقوله كفاية، ونلك أن الشيطان ذكر فيها منكراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحداً لوجهين أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذكر الله، والآخر يؤخذ من الآية وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعاً في قوله: وأنهم، فإنه عائد إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود الضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة، النكتة الثانية: أن في هذه الآية رداً على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك، واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة، وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾، قد أحسن الله له رزقاً، ونقض غيره بقوله: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير = =

لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

أي تنظر إليها نظر العشيّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وهو بين في قول حاتم:

أعشو إذا ما جارتي برزت حتى يواري جارتي الخدر

وقرئ يعشوا على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن كقوله تعالى: ﴿صم بكم عمي﴾[1] وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾[2] ﴿نقيض له شيطاناً﴾ نخذله ونخل بينه وبين الشياطين كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾[3] ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين﴾[4]، وقرئ يقيض أي يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان.

وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾.

فإن قُلْتَ: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وإنهم ليصدّونهم﴾ **قُلْتُ:** لأنّ من مبهم في جنس العاشي وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعاً.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾.

﴿حتى إذا جاءنا﴾ العاشي، وقرئ جاآنا على أنّ الفعل له ولشيطانه ﴿قال﴾ لشيطانه ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران.

فإن قُلْتَ: فما بعد المشرقين؟ **قُلْتُ:** تباعدهما والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية أضاف البعد إليهما.

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿إنكم﴾ في محل الرفع على الفاعلية يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه ولذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: يا ليت بيني وبينك على معنى، ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين وقوله: ﴿إنكم في العذاب مشتركون﴾ تعليل أي: لن ينفعكم تمنيكم لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم، وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر وتقوّيه قراءة من قرأ إنكم بالكسر وقيل: إذا رأى الممنوّ بشدة من مني يمثلها روّحه ذلك ونفس بعض كربه وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء.

أعزي النفس عنه بالتأسي

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم لعظم ما هم فيه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى إذا ظلمتم؟ **قُلْتُ:** معناه إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين وذلك يوم القيامة وإذ بدل من اليوم ونظيره. إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة. أي تبين أني ولد كريمة كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكد روحه في دعاء قومه وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغيّ.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾.

فأنكر عليه بقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر كقوله تعالى: ﴿إنّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾[5].

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾.

ما في قوله: ﴿فإما نذهبنّ بك﴾ بمنزلة لام القسم في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ أشدّ الانتقام في الآخرة كقوله تعالى: ﴿أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾[6] وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم، وهو يوم بدر فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا وصفهم

= علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه﴾ الآية، وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: يعش وله مرتين، ثم على المعنى في قوله: ليصدونهم، ثم على اللفظ بقوله: حتى إذا جاءنا، وقد قدّمت أنّ الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعدّدت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك، حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ولا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ فإن الجملة واحدة فانظره في موضعه.

(1) سورة البقرة، الآية: 18.
(2) سورة النمل، الآية: 14.
(3) سورة فصلت، الآية: 25.
(4) سورة مريم، الآية: 83.
(5) سورة فاطر، الآية: 22.
(6) سورة غافر، الآية: 77.

بشدّة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدّة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾.

وقرئ: ﴿نرينك﴾ بالنون الخفيفة وقرئ بالذي أوحي إليك على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر.

فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾.

فكن مستمسكًا بما أوحينا إليك وبالعمل به؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقي وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ولا يثبطه تأخيره.

وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿وإنه﴾ وإنّ الذي أوحى إليك ﴿لذكر﴾ لشرف ﴿لك ولقومك﴾ لسوف ﴿تسئلون﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم[1] هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء وكفاه نظرًا وفحصًا نظره في كتاب الله المعجز المصدّق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها والسؤال الواقع مجازًا عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال وقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك، وجنى ثمارك فإنها إن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا وقيل: إن النبي ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل.

وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾.

وقيل معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل، وعن الفراء هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾.

ما أجابوه به عند قوله: إني رسول رب ﴿العالمين﴾ محذوف دل عليه قوله: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ أي: يسخرون منها ويهزؤن بها، ويسمونها سحرًا وإذا للمفاجأة.

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ **قُلْتُ:** لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب[2] في محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾.

فإن قُلْتَ: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ **قُلْتُ:** أختها التي هي آية مثلها وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل، والاستقراء واحدة بعد واحدة كما تقول: هو أفضل رجل رأيته تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذ قروتهم رجلاً رجلاً.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض لأنّ معناه ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة **قُلْتُ:** الغرض بهذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقي في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك فعلى ذلك بني الناس كلامهم، فقالوا: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تلق لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرّغة لا يدري أين طرفاها ﴿لعلهم يرجعون﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان[3].

---

(1) قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك والله أعلم.

(2) قال أحمد: الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق والله أعلم أنّ كل واحدة من هذه الآى إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأنّ كل آية دونها فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضاً فكره بعظمها وذهل عن الأولى، فجزم بأن هذه النهاية، وإنّ كل آية دونها، والحاصل أنها لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة،= بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(3) قال أحمد: تقدّم في غير موضع أن لعل حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى، فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق وعليه تأوّل سيبويه ما ورد، وأمّا الزمخشري فيحمل لعل على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى من اعتقاد أن الله يريد شيئاً، ويريد العبد خلافه فيقع مراد العبد، ولا يقع مراد الرب تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فما

فإن قُلْتَ: لو أراد رجوعهم لكان **قُلْتُ**: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع؛ لأنّ الإرادة لم تكن قسرًا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب السنون والطوفان والجراد وغير ذلك.

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾.

وقرئ*: يا أيه الساحر بضم الهاء وقد سبق وجهه.

فإن قُلْتَ: كيف سموه بالساحر مع قولهم **﴿إننا لمهتدون﴾**؟ **قُلْتُ**: قولهم **﴿إننا لمهتدون﴾** وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾**، فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم إننا لمهتدون، وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر. بما عهد عندك بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك وهو النبوّة أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة، أو بما عهد عبدك من كشف العذاب عمن اهتدى.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَ�ٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾.

﴿ونادى فرعون في قومه﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعًا له، والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك فأسند النداء إليه كقولك قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه، ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط فكأنه نودي به بينهم فقال: **﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾** يعني: أنهار النيل ومعظمهما أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وقيل تحت سريره لارتفاعه، وقيل بين يدي في جناني وبساتيني ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر، وتجري نصب على الحال منها وأن تكون الواو للحال واسم الإشارة مبتدأ والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر وعجب الناس من مدى عظمته وأمر فنودي بها في أسواق مصر، وأزقتها لئلا تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبيدي فولاها الخصيب وكان على وضوئه، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر والله لهي أقل عندي من أن أدخلها فثنى عنانه.

أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾.

﴿أم أنا خير﴾ أم هذه متصلة لأنّ المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه، وضع قوله: أنا خير موضع تبصرون لأنه إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب، ويجوز أن تكون منقطعة على بل أأنا خير والهمزة للتقرير وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر، وجرى الأنهار تحته ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي **﴿من هذا الذي هو مهين﴾** أي: ضعيف حقير وقرئ أما أنا خير **﴿ولا يكاد يبين﴾** الكلام لما به من الرتة يريد أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة وكانت الأنبياء كلهم أنبياء بلغاء.

فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾.

وأراد بإلقاء الأسورة عليه إلقاء مقاليد الملك إليه؛ لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار، وطوّقوه بطوق من ذهب **﴿مقترنين﴾** إما مقترنين به من قولك قرنته فاقترن به وإما من اقترنوا بمعنى: تقارنوا لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقًا ملكه ربه وسوّده وسوّره وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره، وقرئ أساور جمع أسورة وأساوير جمع إسوار وهو السوار وأساورة على تعويض التاء من ياء أساوير، وقرئ ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله عز وجل.

فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾.

﴿فاستخف قومه﴾ فاستفزهم وحقيقته حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم وكذلك استفز من قولهم للخفيف فز.

فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾.

= أشنعها زلة وأبشعها خلة، ولقد أساء الأدب في هذا الموضع حتى أنه لولا تعين الردّ عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اهتدى، وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وأنّ =

= مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض نعوذ بالله من هذه الغواية ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾.

﴿آسفونا﴾ منقول من أسف أسفًا إذا اشتد غضبه ومنه الحديث في موت الفجاة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر[1] ومعناه: إنهم أفرطوا في المعاصي وعدوّا طورهم فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لا نحلم عنهم.

فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾.

وقرئ: سلف جمع سالف كخادم وخدم وسلفًا بضمتين جمع سليف أي: فريق قد سلف وسلفًا جمع سلفة أي ثلة قد سلفت ومعناه فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم وحديثًا عجيب الشأن سائرًا مسير المثل يحدثون به، ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ امتعضوا من ذلك امتعاضًا شديدًا فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أنّ عيسى بن مريم نبي وتثنى عليه خيرًا وعلى أمه وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ ونزلت هذه الآية[2]، والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه.

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾.

﴿إذا قومك﴾ قريش من هذا المثل ﴿يصدّون﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحًا وجزلاً وضحكًا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم، وأمّا من قرأ يصدّون بالضم فمن الصدود أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصديد وهو الجلبة وأنهما لغتان نحو يعكف ويعكف ونظائر لهما.

وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينًا ﴿ما ضربوه﴾ أي: ما ضربوا هذا المثل ﴿لك إلا جدلاً﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بل هم قوم خصمون﴾ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج كقوله تعالى: ﴿قومًا لدًّا﴾[3] وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾[4] ما أريد به إلا الأصنام وكذلك قوله عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم[5] إنما قصد به الأصنام ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة؛ إلا أنّ ابن الزبعري بخبه وخداعه وخبث دخلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم مع علمه بأنّ المراد أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغًا فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة المحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ فدل به على أنّ الآية الآية خاصة في الأصنام على أنّ الظاهر، قوله: وما تعبدون لغير العقلاء وقيل لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾[6] قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميًا ونحن نعبد الملائكة فنزلت وقوله: ﴿آلهتنا خير أم هو﴾ على هذا القول تفضيل لآلهتهم على عيسى لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلاً معناه وما قالوا هذا القول يعني: آلهتنا خير أم هو إلا للجدال، وقرئ آلهتنا خير بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها لدلالة أم العديلة عليها وفي حرف ابن مسعود خير أم هذا، ويجوز أن يكون جدلاً حالاً أي: جدلين وقيل لما نزلت ﴿إنّ مثل عيسى عند الله﴾ قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرًا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدّون يضجون ويضجرون والضمير في ﴿أم هو﴾ لمحمد ﷺ وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السخرية به والاستهزاء، ويجوز أن يقولوا لما أنكر عليهم قولهم الملائكة بنات الله وعبدوهم ما قلنا بدعا من القول ولا فعلنا نكرًا من الفعل، فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه ونحن أشف منهم قولاً وفعلاً فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي فقيل لهم مذهب النصارى شرك بالله ومذهبكم شرك مثله وما تنصلكم مما أنتم عليه بما، أوردتموه إلا قياس باطل ببطل.

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾.

وما عيسى ﴿إلا عبد﴾ كسائر العبيد ﴿أنعمنا عليه﴾ حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير سبب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبني إسرائيل.

وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر.

---

(1) تقدم في سورة طه.

(2) تقدم في سورة الأنبياء.

(3) سورة مريم، الآية: 97.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/478.

(6) سورة آل عمران، الآية: 59.

﴿لجعلنا منكم﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أنّ الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام وذات القديم متعالية عن ذلك.

وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾.

﴿وإنه﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لعلم للساعة﴾ أي: شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة، وقرئ للعلم وقرأ أبيّ لذكر على تسمية ما ينكر به نكرًا كما سمى ما يعلم به علمًا، وفي الحديث أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان وشعر رأسه دهين وبيده حربة وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤمّ بهم، فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به[1] وعن الحسن أن الضمير للقرآن وأن القرآن به علم الساعة لأن فيه الإعلان بها ﴿فلا تمترن بها﴾ من المرية وهي الشك ﴿واتبعون﴾، واتبعوا هداي وشرعي أو رسولي وقيل هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وإنه للقرآن.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾.

﴿عدوّ مبين﴾ قد أبانت عداوته لكم إذ أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور.

وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾.

﴿بالبينات﴾ المعجزات أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿بالحكمة﴾ يعني: الإنجيل والشرائع.

فإن قُلْتَ: هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه **قُلْتُ:** كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم.

فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾.

﴿الأحزاب﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل اليهود والنصارى ﴿فويل للذين ظلموا﴾ وعيد للأحزاب.

فإن قُلْتَ: من بينهم إلى من يرجع الضمير فيه **قُلْتُ:** إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قد جئتكم بالحكمة وهم قومه المبعوث إليهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾.

﴿أن تاتيهم﴾ بدل من الساعة، والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة.

فإن قُلْتَ: أما أدى قوله ﴿بغتة﴾ مؤدى قوله ﴿وهم لا يشعرون﴾ فيستغنى عنه؟ **قُلْتُ:** لا لأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله تعالى: ﴿تأخذهم وهم يخصمون﴾[2] ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون.

ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾.

﴿يومئذ﴾ منصوب بعدو أي تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتًا إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى، والتباغض في الله وقيل ﴿إلا المتقين﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء، وقيل نزلت في أبيّ بن خلف وعقبة ابن أبي معيط.

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾.

﴿يا عبادي﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذ. وقرئ: يا عباد.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادي لأنه منادي مضاف أي الذين صدقوا ﴿بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقيل إذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادي مناد يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿تحبرون﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره أي أثره على وجوهكم كقوله تعالى: تعرف في وجوههم نضرة النعيم وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: البيوع، باب: قتل الخنزير (الحديث: 2222). وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: نزول عيسى ابن مريم حاكماً.. (الحديث: 242).

(2) سورة يّس، الآية: 49.

وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾.

والكوب الكوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ الضمير للجنة، وقرئ تشتهي وتشتهيه وهذا حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب وإما مستلذة في العيون.

وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة وهي مبتدأ و﴿الجنة﴾ خبر و﴿التي أورثتموها﴾ صفة الجنة أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة والتي أورثتموها خبر المبتدأ، أو التي أورثتموها صفة و﴿بما كنتم تعملون﴾ الخبر والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار، أو في الوجه الأوّل تتعلق بأورثتموها وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة.

وقرئ ورثتموها.

لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾.

﴿منها تاكلون﴾ من للتبعيض أي لا تاكلون إلا بعضها وأعقابها باقية في شجرها فهي مزينة بالثمار أبدًا مورقة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وعن النبي ﷺ لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها[1].

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿لا يفتر عنهم﴾ لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرّها، والمبلس اليائس الساكت سكوت يأس من فرج، وعن الضحاك يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدًا لا يرى ولا يرى ﴿هم﴾ فصل عند البصريين عماد عند الكوفيين، وقرئ وهم فيها أي: في النار وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما يا مال بحذف الكاف للترخيم كقول القائل:

والحق يا مال غير ما تصف

وقيل لابن عباس إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يا مال، فقال: ما شغل أهل النار عن الترخيم[2]؟ وعن بعضهم حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الإسم لضعفهم وعظم ما هم فيه، وقرأ أبو السرار الغنوي يا مال بالرفع كما يقال يا حار.

وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾.

﴿ليقض علينا ربك﴾ من قضى عليه إذا أماته فوكزه موسى فقضى عليه والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا.

فإن قُلْتَ: كيف قال ونادوا يا مالك بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قُلْتُ: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الأحوال فيسكنون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا فرج لهم ويغوّثون أوقاتًا لشدّة ما بهم ﴿ماكثون﴾ لابثون وفيه استهزاء، والمراد خالدون عن ابن عباس رضي الله عنهما إنما يجيبهم بعد ألف سنة[3]، وعن النبي ﷺ يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون ادعوا مالكًا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك[4].

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾.

﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل بدليل قراءة من قرأ لقد جئتكم، ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل لما سألوا مالكًا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم أجابهم الله بذلك ﴿كارهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه لأنّ مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿أم﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أمرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ ﴿فإنا مبرمون﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى: ﴿أم يريدون كيدًا﴾[5] فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ.

أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالسر والنجوى؟ قُلْتُ: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بلى﴾ نسمعهما، ونَطَّلِعُ عليهما ﴿ورسلنا﴾ يريد الحفظة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك، وعن يحيى بن معاذ الرازي من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفي عليه شيء في السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه وهو من علامات النفاق.

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾.

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فانا أول﴾ من يعظم ذلك الولد، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له[6] كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه وهذا كلام وارد على

---

(1) تقدم في سورة البقرة.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الزخرف، باب: «ونادوا يا مالك...» (الحديث: 4819).

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار، (الحديث: 2586).

(4) تقدم تخريجه سابقاً.

(5) سورة الطور، الآية: 42.

(6) قال أحمد: لقد اجترأ عظيماً، واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدلياً إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه، فأنا أول القائلين: إنه شيطان وليس بإله، فلينقم عليه ذلك بقول القائل قد ثبت قطعاً عقلاً وشرعاً أنه تعالى خالق لذلك في القلوب، كما خلق الإيمان وقاه بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق =

سبيل الفرض والتمثيل لغرض[1]، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها ونظيره أن يقول العدلي للمجبر إن كان الله تعالى خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه عذابًا سرمدًا فانا أول من يقول هو شيطان وليس بإله، فمعنى: هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقًا للكفر وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه، ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: أما والله لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهًا غيرك، وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه وقيل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم العبدين وقيل هي إن النافية أي ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد، وروى أنّ النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت فقال النضر ألا ترون أنه قد صدقني فقال له: الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له وقرئ ولد بضم الواو.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ليدل على أنه من صفة الأجسام ولو كان جسمًا لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم **﴿ويلعبوا﴾** في دنياهم **﴿حتى يلاقوا يومهم﴾** وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب وإعلام لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان كقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[2] وإبعاد بالشقاء في العاقبة ضمن اسمه تعالى معنى وصف لذلك علق به الظرف في قوله: في السماء وفي الأرض[3] كما تقول: هو حاتم في طي حاتم في تغلب على تضمين معنى الجواد الذي شهر به كأنك قلت هو جواد في طي جواد في تغلب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقرئ: **﴿وهو﴾** الذي في السماء الله وفي الأرض الله ومثله قوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ كأنه ضمن معنى المعبود، أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام كقولهم ما أنا بالذي قائل لك شيئًا وزاده طولاً أنّ المعطوف داخل في حيز الصلة ويحتمل أن يكون في السماء صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف على أنّ الجملة بيان للصلة، وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية لا على معنى الاستقرار وفيه نفي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض **﴿ترجعون﴾**، قرئ بضم التاء وفتحها ويرجعون بياء مضمومة وقرئ تحشرون بالتاء.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من **﴿شهد بالحق﴾** وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص هو الذي يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلاً، لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة، وقرئ تدعون بالتاء وتدعون بالتاء وتشديد الدال.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وقيله﴾، قرئ بالحركات الثلاث، وذكر في النصب عن

= إلا الله، وتصديقاً بمضمون قوله تعالى: ﴿هل من خالق غير الله﴾، وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلاً لزمه فرك أذنه، وغل عنقه إذ يلحد في الله إلحاداً لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة، ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ، فقال هذه المقالة، واقتحم هذه الضلالة بلا محالة، فإنه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها، والله المسؤول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير: 3/258.

(2) سورة فصلت، الآية: 40.

(3) قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافاً إلى الطول الذي ذكره وقوع الموصول خبراً عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكر، إذ كان أصل الكلام، وهو الذي هو في السماء إله، ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وأن الراجع إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد، فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله تماماً على الذي أحسن، ومع أي في موضعين على رأي.

الأخفش أنه حمله على أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وعنه وقال قيله وعطفه الزجاج على محل الساعة كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمرًا وحمل الجرّ على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده، وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله، وأمانة الله ويمين الله ولعمرك ويكون قوله: ﴿إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ جواب القسم كأنه قيل وأقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون.

فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾.

﴿فاصفح عنهم﴾ فاعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم وودعهم وتاركهم ﴿وقل﴾ لهم ﴿سلام﴾ أي تسلم منكم ومتاركة ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله ﷺ والضمير في وقيله لرسول الله ﷺ وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه: عن النبي ﷺ من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون أدخلوا الجنة بغير حساب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الدخان مكية

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾.

الواو في ﴿والكتاب﴾ واو القسم إن جعلت حم تعديدًا للحروف أو اسمًا للسورة مرفوعًا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسمًا بها.

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾.

وقوله: ﴿إنا أنزلناه﴾ جواب القسم، والكتاب المبين القرآن، والليلة المباركة ليلة القدر وقيل ليلة النصف من شعبان ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة، وقيل بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة وقيل في تسميتها ليلة البراءة والصكّ أن البندار إذا استوفي الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هي مختصة بخمس خصال تفريق كل أمر حكيم، وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ: من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان[1]، ونزول الرحمة قال عليه الصلاة والسلام: إنّ الله يرحم، أمّتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب[2]، وحصول المغفرة قال عليه الصلاة والسلام: إنّ الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين، أو مصرّ على الزنا[3] وما أعطى فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته فأعطى الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد عن الله شراد البعير[4]، ومن عادة الله في هذه الليلة أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة والقول الأكثر أنّ المراد بالليلة المباركة ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[5] ولمطابقة قوله ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ لقوله: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾[6] وقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾[7] وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان.

فإن قُلْتَ: ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ **قُلْتُ:** قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله ﷺ نجومًا نجومًا.

فإن قُلْتَ:

﴿إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟ قُلْتُ: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسربهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾[8] كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصًا لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة وهذه الليلة

---

(1) قال الزيلعي: رواه سليم بن أيوب الرازي في كتاب: الترغيب، ورواه محمد بن ناصر السلامي في كتاب: فضائل شعبان، وفي الفردوس، الزيلعي: 3/261.

(2) أخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 739)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الإقامة، باب: ما جاء في ليلة النصف من شعبان، (الحديث: 1389).

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: الحظر والإباحة، باب: ما جاء في= = التباغض والتحاسد، (الحديث: 5665).

(4) قال الزيلعي غريب: 3/266.

(5) سورة القدر، الآية: 1.

(6) سورة القدر، الآية: 4.

(7) سورة البقرة، الآية: 185.

(8) سورة الدخان، الآية: 3.